ملاحظات على تفسير المنار لسورة البقرة

استكمالاً لما بدأناه من إبداء الملاحظات النقدية، وإرشادا لطلاب العلم إلى كيفية إعادة النظر في الكتب التي ألفها بعض المشهورين، وقد خالفوا فيها من بعض الجهات طريقة أهل السنة، نشرع بتوفيق الله تعالى وعونه في كتابة بعض ما لاحظناه على تفسير المنار.

المؤمنون بمجرد الفطرة:

ذكر محمد رشيد رضا أن أقسام الناس التي ذكرها الله تعالى في بداية سورة البقرة ثلاثة، منها كما قال(105/1)":(المؤمنون وهم قسمان : اللذين يؤمنون بالغيب بمجرد سلامة الفطرة ويقيمون ركني الدين؛ البدني والروحي والمالي الاجتماعي، والذين يؤمنون به بتأثير إيمانهم بما أنزل من قبله من كتب الرسل..الخ"

ثم ذكر القسمين الآخرين وهما الكافرون الراسخون في الكفر، والمنافقون. ونلاحظ على ما ذكره محمد رشيد رضا أنه في القسم الأول ذكر أن المؤمنون إما يؤمنون بالفطرة أو بتأثير بما أنزل من قبل، ونحن نعجب من هذا القول الذي يهمل فيه المؤمنون عن طريق النظر والعقل، وهو يعلم أن القرآن أصلا نزل يخاط الناس ليؤمنوا بالله تعالى وبرسالاته عن طريق النظر والتدبر العقلي.

ويبدو لي أن حصر المؤمنين في ما ذكر تقليدا للوهابية وابن تيمية، وقد لجأ محمد رشيد رضا إلى تفسير قوله تعالى (أفلا تعقلون) في(111/1) بقوله"وهي صريحة في أن هذا مخالف في المنقول الشرعي وهو الكتاب، وللمعقول الفطري إذ لا يخفى على عاقل قبح عمل من يأمر غيره بالخير وهو يتركه...الخ"اهـ .فسمى هذا المعقول بالمعقول الفطري، وكان ينبغي أن يقتصر على تسميته بالمعقول كما أطلقه القرآن، وأما تقييده بالفطري، فإن كان المقصود منه أن مخلوق مع

الإنسان ذلك الإدراك، فهو غلط محض، وإلا فهو معقول مطلقا ولا وجه لتسميته بالفطري.

استعماله لمصطلح غربي(القرون الوسطى)

من المعلوم أن مصطلح القرون الوسطى مصطلح غربي أطلق على فترة معينة مر فيها أهل أوروبا، وفي هذه القرون انتشر الجهل والخرافات والهزات الفكرية، واشتد فيها تسلط رجال الدين عندهم على الحياة الاجتماعية والسياسية بزعم أنهم يتكلمون باسم الرب. ومن العجيب أن نرى واحدا يفسر القرآن ويزعم أنه يجدد للناس دينهم يستعمل هذا المصطلح ويطلقه على علمائنا المتقدمين فقد قال مثلا في (114/1 ":(وإن في إطلاق مقلدة المصنفين من خلف القرون الوسطى القول بإيجاب تقليد المجتهدين في أمور الدين وتحريم الأخذ بالدليل فيه.... خلاصة تحريم العلم وإيجاب الجهل، وهذا منتهى الإفساد للفطرة والعقل ، وهو أقطع المدى لأوصال الإسلام وأفعل المعاول في هدم قواعد الإيمان...الخ"اهـ.

ومن الواضح تأثره بالغربيين لا في المصطلح فقط، بل إنه استحضر أيضا روحهم في مخاطبهم الرهبان والبابوات، فتراه يخاطب علماء الدين بنفس تلك الروح التي تسلطت على ما يسمون بعلماء التنوير أو مفكري التنوير.

وتأمل كيف يعتبر تقليد المجتهدين كالفقهاء الأربعة سببا في خراب الدين وفساده

وقال في أثناء نقده لكتب كان الأزهر قد اعتمدها كشرح التلخيص وحواشيه ونحوهما في تفسير المنار (202/1) وحض على قراءة كتب عبد القاهر الجرجاني وقراءة كثير من منظوم العرب ومنثورهم ": فهذا هو الأصل في تحصيل ملكة البلاغة فهما وأداء، والقوانين الموضوعة لها مستنبطة من الكلام البليغ وليس هو مستنبطا منها، وقد عكست القضية منذ القرون الوسطى حتى ساغ لمستقل الفكر أن يقول في الكتب التي أشار إليها وهي التي تقرأ في مدرسة الجامع الأزهر وأمثالها إن قواعدها تقليدية لا يمكن أن يعلم بها تفاضل الكلام..."اهـ

ونحن لا نريد الآن إلا التنبيه على استعماله لمصطلح القرون الوسطى بنفس الإيحاءات التي أشرنا إليها سابقا، وليس قصدنا أن ننقد ما قاله من رأي ضعيف حقا في كتب الإمام السعد وغيره، وسوف نتكلم على رأيه هذا في موضعه إن شاء الله تعالى، وعند ذاك سيتبين لك مدى فهاهة قوله وتفاهة رأيه؛ وإن بدا للعديد من كتاب هذا العصر الغريب العجيب قويا رشيدا.

ولا بد من ملاحظة أننا لا نستقل من فائدة كتب الإمام عبد القاهر بل نقول إنها العمدة والأساس، ولكنا نخالفه في رأي أبداه في مصنفات علماء البلاغة الأخرى على ما سيظهر لك في موضعه.

لابد من الحجة العقلية للمتصدي لهداية القرآن:

مر معك أن محمد رشيد رضا ذكر أن المؤمنين إما بالفطرة يكونوا مؤمنين أو بتأثرهم بالكتب السابقة، واعترضنا عليه أنه أهمل ذكر الحاجة إلى الحجة العقلية، فالإنسان قد يؤمن بناء على النظر في الحجة العقلية أيضا وهو ما لم يذكره.

فإذا عرفت ذلك فتأمل في قوله قي(127/1 ":(ومن لا يؤمن بالله لا يمكن أن يهتدي بالقرآن، ومن يتصدى لهدايته لابد له أن يقيم الحجة العقلية على أن لهذا العالم إلها متصفا بصفات الكمال....الخ"اهـ.

فأنت ترى تصريحه بضرورة الاعتماد على الحجة العقلية في الإيمان بالله تعالى وذلك الإيمان هو شرط الإستفادة من هداية القرآن، وهذا تضارب مع ما مضى مع أن الآيات في أول سورة البقرة لم تقيد المؤمنين بكونهم مؤمنين بالفطرة أو لتأثرهم بالكتب السابقة، وهذا القيد من عند رشيد رضا. وأما القول بأن الإنسان محتاج إلى الحجة العقلية للإيمان بالله تعالى فهو من كلام الشيخ محمد عبده وهو أقعد وأضبط عموما من مجازفات رشيد رضا.

موقفه من بعض العلوم المهمة:

لا يتردد محمد رشيد رضا في الحط من شأن بعض العلوم المهمة عند علماء أهل السنة والمحققين المشتغلين بالعلوم الشرعية، وكذلك لا يلوح في تبخيس قدر بعض العلوم المهمة التي اشتغل أكثر العلماء بها واعتنوا فيها وجعلوها عمدة للدرس والتحقيق، وهذا مطرد عنده وعند شيخه محمد عبده، ومن أمثلة ذلك:

قال في تفسير المنار(173/1) تعليقاً على قوله تعالى: (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه": (بلى هو عندهم مدروس بجدليات النحو والكلام، لكنه دارس الصوت والأعلام المعنوية لهداية القلوب والأحلام ومقروء بالتجويد والأنغام ولكنه متروك الحكم والأحكام...الخ"اهـ.

وقال في (182/1) موضحاً رأيه في مختصر السعد في البلاغة ":وأما مختصر السعد ومطوله فلا يتعلم قارئهما إلا الاصطلاحات الجافة التي تفسر ملكة البيان وتبعد بقارئها عن الذوق والبلاغة"اهـ.

ومن البين أن هذا مجرد مبالغة معهودة منه ومن الشيخ محمد عبده، فهذه الكتب لم ينكر فائدتها كبار العلماء بل أقروا بما فيها، وإن اختلف البعض في طريقة عرض علم البلاغة أو النحو، فاختلاف الأساليب غير مذموم، بل هو في غاية الإفادة، ولكن المستنكر هنا أن ينكر رشيد رضا هذه الكتب والعلوم ويدعي أنها تبعد الإنسان عن القراءة والدين**!!!**

تأثره بالوهابية:

قال محمد رشيد رضا (184/1 ":(فكان كل رسول يبدأ دعوته بقوله (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) وذلك أن جميع تلك الأمم كانت تؤمن بأن الله خالق الخلق هو ربهم ومدبر أمورهم، وإنما كان كفرهم الأعظم بعبادة غير الله تعالى بالدعاء الذي هو ركن العبادة الأعظم في وجدان جميع البشر، وبغير بالدعاء والاستغاثة من العبادات العرفية كالتقرب إلى المعبود بالنذور وذبح القرابين...."اهـ.

وهذا الكلام لا يُسَلَّم له، فإن الذي يعتقد أن الله تعالى هو مدبر أمره وهو ربه فيستحيل أن يدعو غيره، وإنما يدعو الإنسان من يعتقد قدرته على الإجابة، فلولا أنهم كانوا مشركين مع الله تعالى غيره في التدبير والربوبية، لما دعوا غير الله تعالى، ومن الواضح أن محمد رشيد رضا متأثر تماما بمذهب الوهابية، فهو يكرر بنفس طريقتهم، ولا يكلف نفسه إعادة النظر في بعض مقولاتهم.

تدقيق لغوي:

قال محمد رشيد رضا في هامش(191/1 ":(هذا مبني على قاعدة معروفة في العربية وهي أن شرط (إذا) يقتضي الوقوع، وشرط (إن) يقتضي عدم الوقوع أو الشك فيه"اهـ.

والتحقيق أن (إذا) تقتضي قرب الوقوع وتوقعه، و(إن) تفيد بعده الصادق على غلبة نفيه وعلى عدم وجوده قطعاً؟

وليس كما قال.

تأويل آيه:

قوله تعالى: (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله)

قال في المنار(192/1 ":(وقوله تعالى (من مثله) فيه وجهان (أحدهما) أن الضمير في "مثله" للقرآن المعبر عنه بقوله (مما نزلنا)، و(الثاني) أنه ل(عبدنا)، قال شيخنا وهو أرجح بدليل من الداخلة على مثله الدالة على النشوء، أي فإن كان أحد ممن يماثل الرسول بالأمية يقدر على الإتيان بسورة من مثله فليفعل"اهـ.

قال الماوردي في النكت والعيون (84/1):" (فأتوا بسورة من مثله) فيه تأويلان:

أحدهما: يعني من مثله من القرآن وهذا قول مجاهد وقتادة.

والثاني: فأتوا بسورة من مثل محمد صلى الله عليه وسلم من البشر، لأن محمداً بشر مثلهم"اهـ.

وذكر ابن عادل في اللباب الوجه الأول ثم قال(435/1):" الثاني أنها تعود على (عبدنا) فيتعلق (من مثله) ب (أتوا، ويكون معنى (من) ابتداء الغاية، ويجوز عل هذا الوجه أيضاً أن تكون صفة لسورة أي بسورة كائنة من رجل مثل عبدنا أميّ لا يقرأ ولا يكتب، قال القرطبي: و(من) على هذين التأويلين للتبعيض."اهـ

ثم ذكر ابن عادل قولين لعود الضمير، فما ذكره الشيخ محمد عبده سبقه إليه غيره وهو لم يدَّعِ التفرد، ولكن لغرابة هذا الوجه ذكرنا ما ذكرنا لئلا يبادر إلى الإنكار.

معنى قوله تعالى (فاتقوا النار):

قال الشيخ محمد عبده في المنار(197/1 ":(وهي موطن عذاب الآخرة نؤمن بها، لأنها من عالم الغيب الذي أغبر الله تعالى به ولا نبحث عن حقيقتها، ولا نقول بأنها شبيهة بنار الدنيا ولا أنها غير شبيهة بها....الخ"اهـ.

أنا أرى أن هذا المنهج غير مقنع، بل الواجب أن نثبت للنار حقيقتها وماهيتها المعلومة لدينا في الحياة الدنيا، ثم لا مانع أن نقول أنها أعظم مما في الدنيا من حيث قوتها وكيفيتها أو شدتها، أما أن نقول: أنها لا شبيهة ولا غير شبيهة بالنار في الدنيا، فهو خلاف الظاهر، ولا موجب هنا للعدول عن الظاهر. وإنما وجب العدول عن الظاهر في آيات الصفات المتشابهة كاليد والوجه ونحوها، لأن الله تعالى يستحيل أن يشبه المخلوقات، وهذا المحظور المخوف منه هنا، غير متحقق في النار الآخرة والدنيا.

فقول محمد عبده أنها من المتشابهات، متشابه والله أعلم.

وقد مشى الشيخ محمد عبده على ها الموقف في كل المواضع التي قال إنها من المتشابهات.

تعليق صاحب المنار على القول بالصَّرْفة:

قال صاحب المنار(198/1 ":(قال بعض علماء المعتزلة: إن إعجازه بالصرفة يعنون أن الله تعالى صرف قدرة بلغاء العرب الخلص في عصر التنزيل عن التوجه لمعارضته فلم يهتدوا إليها سبيلاً، ثم تسلسل ذلك في غيرهم واستمر إلى عصرنا هذا، وهذا رأي كسول أحب أن يريح نفسه من عناء البحث وإحالة قدح الفكر في هذا الأمر....الخ"اهـ

وقد غفل صاحب المنار عن أن بعض أكابر علماء أهل السنة قد قالوا بالصرفة، كالإمام الجويني في النظامية، وقد نقله القاضي عياض عن بعض أهل السنة في مواضع من الشفا في أحوال المصطفى. وهؤلاء لا يوصفون بأنهم مالوا إلى هذا القول لمجرد أنهم كسولون يحبون أن يريحوا أنفسهم، كلا! بل لا يوصف بهذا الوصف من قال بهذا الوصف من المعتزلة.

ومن عنده علم يقطع أن المسألة لها ذيولها، وأنها لا تخلو من وجه دقة قد بينه العلماء الباحثون في إعجاز القرآن وفي علم الكلام، وإن رجح أكثر أهل السنة خلافها وأن الإعجاز ليس بالصرفة، ولكن لا يقال إن هذا الرأي رأي كسولٍ...الخ ما قال رشيد رضا!

وإنما أحببت التنبيه إلى هذا، لأن هذه الطريقة التي اتبعها صاحب المنار هنا في نقد المذهب القائل بالصرفة، ليست طريقة علمية ولا مقبولة.

انتقاد الكتب المعتمدة في بعض العلوم:

غير خاف أن الشيخ محمد عبده كان قد ثار ثورة عظيمة على مناهج الأزهر، وانتقد العديد من الكتب التي كانت مقررة منذ أزمان وفيه، وقد اتخذ الموقف نفسه في انتقاد الكتب المعتمدة للتدريس في علم البلاغة كشرح السعد وألفية الخضري وشروحهما وحواشيهما، وقد كان يزعم أن هذه الكتب لا تفيد شيئاً بل تقطع الإنسان عن روح اللغة، وعن بلاغة القرآن، وهذه دعوى

عظيمة، نزعم نحن أنها مردودة لا قيمة لها، فإن أعظم من كتب في التفسير والتدقيق في آيات القرآن الكريم على النهج البلاغي هم العلماء الذين برعوا في هذا الفن على الطريقة التي انتقدها محمد عبده، ومنهم الإمام السعد والشريف الجرجاني والعديد من المفسرين وأصحاب الحواشي الدقيقة التي ما زلنا حتى الآن ننهل من نهلها ونشرب من مائها.

وقد سار على نهجه في هذا الانتقاد محمد رشيد رضا ، وكنا قد نقلنا بعض كلام له في هذا، وسنعلق هنا على جهة نراها مهمة أغفلها الشيخ وتلميذه.

فقد قال صاحب المنار (201/1 ":(فقد مرت القرون في إثر القرون على ترك الناس لمدارس الكلام البليغ منها واستظهاره واستعماله، واقتصار مذاهب الأمصار على قراءة كتب النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع وهي أدنى ما وضع في فنونها فصاحة وبياناً، وأشدها عجمة وتعقيداً، وهي الكتب التي اقتصر مؤلفوها على سرد القواعد بعبارة فنية دقيقة بعيدة عن فصاحة أهل اللغة وعن بيان المتقدمين الواضعين لهذه الفنون ومن بعدهم إلى القرن الخامس...الخ"اهـ.

وضرب أمثلة كالسمرقندية وشرحي جوهر الفنون وعقود الجمان وشرحي التلخيص للسعد والعالم بالبلاغة، وليس من ضرورة العالم بالبلاغة أن يكون بليغاً في كتاباته، بمعنى إنه ليس بالضرورة أن يكون شاعراً وخطيباً وأديباً، ولكن العالم بالبلاغة على تحليل الكلام ونقده، وإظهار البليغ منه وبيان جهات البلاغة فيه، وذكر مراتب الكلام البليغ. وبناءً على ذلك، فليس من ضرورة كتب علم البلاغة أن تكون لغتها وأسلوبها شعرية خطابية، بل يمكن أن يكون أسلوبها تقريرياً دقيقاً حازماً، بلا عبارات إنشائية، وهذا الأسلوب هو ما جرى عليه العديد من العلماء المتأخرين وهو الأسلوب الذي قرره الأزهر لتعليم الطلاب، وفي رأيي أن هذا الأسلوب أقرب إلى البلاغة كعلم منه إلى البلاغة كممارسة، وما يريده صاحب المنار ينصب في ممارسة البلاغة وصيرورة الإنسان نفسه بليغاً، ولكن المطلوب في العلوم هو تقرير وجوه البلاغة في الكلام، ونقده وبيان درجاته، والقادر على ذلك هو الذي درس وتعلم علم البلاغة كقواعد رصينة وليس هو من حفظ الشعر وقرأ الأدب وصار منفعلاً به. فالتحقيق إذاً أن المناسب للتدريس هي

الطريقة التقريرية في هذا العلم وغيره من العلوم على الأقل في مراحل معينة.

وأزيد أيضاً فأقول: إن تقرير كتابي عبد القاهر وهما الدلائل والأسرار على المبتدئين في دراسة البلاغة غير مناسب مطلقاً، ولا هو موافق للحكمة أيضاً، فهذا أن الكتابان من الكتب المؤسسة للعلم، وليس من المناسب في التدريس تقرير الكتب المؤسسة، كمن يريد تعليم أصول الفقه للمبتدئين فيقرر عليهم الرسالة للشافعي!!

ولذلك لم نزل نرى العلماء يختصرون الكتب المؤسسة ويهذبونها تقريباً لطلاب العلم، وتدرجاً بهم إلى امتلاك المبادئ الأساسية ليتمكنوا بعد ذلك من الخوض مع الكتب الأساسية.

ولو تأمل صاحب المنار قليلاً مع نفسه، لأدرك هذا المعنى، ولكنه في فورة اندفاعه قال ما قال!

ونحن لا ننكر دقة كتب السعد، ولكنها لم تكتب للمبتدئين بل للمنتهين أو للبالغين مراحل متقدمة من هذا الفن. وعلى الأساتذة والمعلمين تقرير الكتب المناسبة للمبتدئين والمتوسطين.

على أنه لو تم سلوك طريقة معينة في التعليم، لكان تقرير مثل كتب السعد في موضعها في غاية الحكمة، وذلك بعد أن يمهد لذلك بما يلائم من الكتب. أما مع قطع المراحل الممهدة والمباشرة في تقرير كتاب السعد، فسوف يلاقي كل من الطالب والمعلم أشد العنت، فالتدرج مطلوب لا شك.

ومما يدل على أن الأمر قد اختلط عند محمد رشيد رضا أنه بعد ما ذكر الطريقة 'إلى تحصيل البلاغة من قراءة الشعر وحفظه وقراءة كلام البلغاء نظماً ونثراً، ودراسة كتب عبد القاهر وغير ذلك مما هو معلوم غير مجهول قال(202/1 ":(فهذا هو الأصل في تحصيل ملكة البلاغة فهماً وأداءً، والقوانين الموضوعة لها مستنبطة من الكلام البليغ وليس هو مستنبطاً منها، وقد عكست القضية منذ القرون الوسطى حتى ساغ لمستقل الفكر أن يقول في الكتب التي أشرنا إليها وهي التي تقرأ في مدرسة الجامع الأزهر وأمثالها إن قواعدها تقليدية لا يمكن أن يعلم بها تفاضل الكلام، إذ يمكن حمل كل كلام عليها ولذلك كان أكثر الناس مزاولة لها أضعفهم بياناً وأشدهم عياً وفهاهةً"اهـ.

وهذا الحكم ما هو إلا من تسرعه، فالمقصود من هذه الكتب ليس تحصيل ملكة البلاغة نفسها، بل تحصيل العلم بالبلاغة، بقواعدها وأحكامها وآثارها، ونحو ذلك ولم يغب عن العلماء ما هي الطريق التي يتوصل بها الإنسان إلى إدراك بلاغة البلغاء وصيرورة ذلك ملكة في نفسه، على أنَّا لا نسلم له عدم فائدة الكتب التي يهاجمها في تحصيل ملكة البلاغة.

وأما حكمه على من يقرأ هذه الكتب بأنه يزداد فهاهة وضعفاً فهو غير مُسَلَّم، بل يزداد علماً وتمكناً في إدراك مواطن البلاغة، ولا أدل على ذلك من أن كبار المحشين على التفاسير المشهورة كالزمخشري والبيضاوي والجلالين هم من أصحاب هذه الطريقة، وليسوا من أصحاب طريقة محمد رشيد رضا وصحبه، وأنى لهؤلاء أن ينتجوا لنا كما أنتج أولئك**!**

اعتراض وتخابط

قال الشيخ محمد عبده(229/1 ":(ولابد في تحقيق الإيمان من اليقين ولا يقين إلا ببرهان قطعي لا يقبل الشك والارتياب"اهـ.

ثم قال ":(1/229) لا ينحصر البرهان العقلي المؤدي إلى اليقين في تلك الأدلة التي وضعها المتكلمون، وسبقهم إلى كثير منها الفلاسفة الأقدمون...الخ"اهـ

فعلق عليه محمد رشيد رضا(230/1 ":(كان الأستاذ قد أطلق اشتراط البرهان العقلي هنا كما أطلقه في مواضع أخرى تقدم بعضها والبحث فيه، ثم قيده هنا بما بيَّن به خطأ بعض المتكلمين في اشتراطهم البراهين المنطقية التي سموها قطعية على ما فيها من خلل وعلل، والحق أن اطمئنان القلب بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من غير تردد ولا اضطراب كافٍ في النجاة في الآخرة، وأن أفضل الأدلة ما أرشد إليه القرآن من النظر في آيات الله تعالى في الأنفس والآفاق، فبداهة العقل فيه كافية عند سليم الفطرة الذي لم يبتل بشكوك الفلاسفة وجدليات المتكلمين ولا بتقليد المبطلين"اهـ.

وهكذا كما ترى لا يترك محمد رشيد رضا فرصةً في الحط من مناهج المتكلمين وتشويه

صورتهم إلا وينتهزها.

وأما ما قاله محمد عبده من عدم انحصار الأدلة فيما ذكره المتكلمون والفلاسفة، فإن قصد عدم وجوب ذلك عقلاً، فوافقه، وإن قصد أنه يمكن الإتيان بما لم يأت به المتقدمون فمسلم، ولكن هل جاء هو أو غيره بذلك، أم إن همهم هو الاستنقاص مما جاء به المتقدمون!؟

وأما جعله المتكلمين تابعين في أكثر ما يقولون للفلاسفة فهو غير خاف، وفيه ما فيه، فإن الاستفادة منهم غير ممنوعة لا شرعاً ولا دافعاً، ولكن لا يصح إنكار تفرد المتكلمين بما هو من خصائص منهجهم، ولا يصح عدم الالتفات إلى ما انتقدوه على الفلاسفة وما ردوه عليهم.

وكان على محمد رشيد رضا أن يوضح أن أكثر المتكلمين لم يشترطوا لصحة الإيمان العلم بالبراهين العقلية، وأن المعتمد عند الأشاعرة هو جواز التقليد بشرط كونه جازماً، مع كون المقلِّد مقصراً إذا كان قادراً على الاستدلال ولم يفعل.

وأما عطفه جدليات المتكلمين على شكوك الفلاسفة وإضافة تقليد المبطلين إلى ذلك كله، فواضح ما يرمي إليه.

وقد نص العلماء على أن المعتمد جواز التقليد بالشرط الذي ذكرناه، وهو يعلم ذلك إذ لابد أن يكون قد قرأ الجوهرة ونحوها من كتب المبتدئين في علم التوحيد، وهذا كله مذكور فيها.

الحور العين

قال الشيخ محمد عبده(233/1 ":(ونساء الجنات من المؤمنات الصالحات، وهن المعروفات في القرآن بالحور العين، وصحبة الأزواج في الآخرة كسائر شؤونها الغيبية نؤمن بما أخبر به الله تعالى منها لا نزيد فيه ولا ننقص منه، ولا نبحث عن كيفيته، وإنما نعرف بالإجمال أن أطوار الحياة الآخرة أعلى وأكمل من أطوار الحياة الدنيا كما تقدم...الخ"اهـ.

وهذا خلاصة طريقة الشيخ محمد عبده في الإيمان بالغيب، مما أخبرنا الله تعالى عنه من شؤون الآخرة، إلا أنه يجب أن يصرح بأن الحقائق في أصلها واحدة، فلإنسان إنسان في الآخرة أيضاً ولكن درجة إنسانيته أكمل ولذاته أكمل وإدراكه أعلى، وهو لا ينكر ذلك، ولكن قد سبق النقل

عنه في ما مضى قوله أنه لا يخوض حقيقة النار ولا يقول أنها شبيهة بنار الدنيا ولا غير شبيهة بها، وكان ينبغي على طريقته أن يقول أن الحقائق والماهيات واحدة، ولكن درجات وكمالات الوجود مختلفة، وحينذاك فلا يمنع القول بالمشابهة بين النارين وبين الوجودين، مع وجود الاختلافات كمالاً ونقصاً.

رأي رشيد رضا في الحياء:

قال الشيخ محمد عبده (1/ 236) ناقلاً عن البعض مؤدي مذهبهم ":فمعنى عدم استحياء الله تعالى أنه لا يعرض له ذلك الانكسار والانفعال، ولا يعتريه ذلك التأثر والضعف، فيمتنع من ضرب المثل"اهـ

ولم يرفضه، ولم يمنعه.

فقال محمد رشيد رضا(236/1 ":(أقول: هذا مؤدي ما قاله الأستاذ في الدرس .....والتحقيق أن الحياء انفعال النفس وتألمها من النقص والقبيح بالغريزة الفضلى غريزة حب الكمال، فهو كمال خلافاً لأولي الوقاحة الذين يعدونه ضعفاً ونقصاً....الخ"اهـ

ولا أدري هل نستطيع أن نفهم من كلام هذا الرجل أنه لا يحيل اتصاف الله تعالى بذلك، ويعده كمالاً! إنه إن أجاز ذلك، فالله أعلم من هم أولو الوقاحة!

وقد غاب عن رشيد رضا أن الحياء بالقدر الذي ذكره إنما يكون كمالاً لمن هو ناقص أصلاً وقابل لكمال زائد غير حاصل له، أو من توقف كماله على غيره، أما من لم يكن كذلك فهذا المعنى محال في حقه. والله تعالى لا ينتظر كمالاً ليس حاصلاً له ولا يستكمل بغيره. فليفهم هذا فإنه من أصول علم التوحيد.

(وما يضل به إلا الفاسقين):

قال الشيخ محمد عبده(238/1 ":(فعرفت علة ضلالهم وهي الفسوق أي الخروج عن هداية الله تعالى في سننه في خلقه التي هداهم إليها بالعقل والمشاعر، وبكتابه بالنسبة إلى الذين أوتوه،

وليس المراد بالفاسقين ما هو معروف في الاصطلاحات الشرعية وهم العصاة بما دون الكفر من المعاصي، فإنه لا يصح هنا، وتلك الاصطلاحات حادثة بعد التنزيل"اهـ.

إن العلماء لا يمنعون من إطلاق الفسوق على الكفر، فالكافر فاسق، ولكنهم يقولون إن الفسوق يطلق على ما هو دون الكفر من المعاصي أيضاً، فحمل اسم الفسوق على الكافر يحتاج إلى دليل وقرينة. وهذا الاصطلاح غير مخالف لاستعمال الشريعة لهذا الاسم، بل هو مشتق منها.

وتعريف الفسوق الذي ذكره الشيخ محمد عبده ليس كافياً في هذا المقام، لأن القرآن ذكر الفسوق في مقابل الضلال، إما كفر أو معاصٍ، والمناسب لسياق الآيات إرادة الكفر هنا، لأنه جل شأنه قال: (وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً، يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً، ولا يضل به إلا الفاسقين).

والفسوق هو خروج عن النظم المعين الذي هو الدين هنا، والله تعالى جعل الأمثال التي يضربها يترتب عليها امتحان الناس وافتراقهم إلى ضالين ومهتدين، فالضلال إذن هو بالنسبة إلى ما ينزله الله تعالى من الآيات وليس بالنظر فقط إلى السنن الكونية العامة والهدايات التي بثها الله تعالى في خلقه، وكذلك الهدى والاهتداء يناسب أن يكون بالنسبة إلى المنزل من الآيات والأمثال، فالانحراف عنها فسوق وهذا موافق ومتفق مع اصطلاح العلماء وليس خارجاً عنه.

قوله تعالى: (كيف تكفرون بالله:(....

قال الله تعالى: (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون).

وفي تفسير المنار قال الشيخ محمد عبده(246/1 ":(لا يقال كيف يحتج عليهم بالحياة الثانية قبل الإيمان بالوحي الذي هو دليلها ومثبتها؟ لأنه احتجاج على مجموع الناس بما عليه الأكثرون منهم، ولا عبرة بالشذاذ المنكرين للبعث في هذا المقام"اهـ.

كذا قال فوجه الآية بأنها احتجاج بالمجموع بما عليه الجمهور، والذي أراه أن هذا غير مستقيم، لأنه استدلال برهاني وليس حجة جدلية حتى يكون المراد الإلزام، فيكون معنى الآية بناءً على هذا:

إن الله تعالى قد أحياكم بعد أن لم تكونوا شيئاً، ثم هو الذي يميتكم، ثم يحييكم بعد إماتتكم، فإذا صح ذلك فكيف يسوغ لكم الكفر به وإنكاره أو إنكار صفة من صفاته.

فهو احتجاج عليهم بالأمر في نفسه، ولا يتوقف صحة الاحتجاج هنا على اعتقاد طائفة من الناس به سواء أكانوا أغلب الناس أو أقلهم. وهذا هو الموافق لظاهر الآية، فهي خطاب للكفار بالله تعالى أنفسهم، فهو يقول لهم إنه لا يصح كفرهم به ولا يقوم على أساس والحال ما ذكرنا**!!** وليس خطاباً لهم واحتجاجاً عليهم بعقيدة غيرهم ممن لا يكفر بالله.

فلا معنى لقوله "فلا عبرة بالشذاذ"، لأنه لا عبرة بالجمهور إن كان منكراً للحق، والحال كلام في أصل من أصول الدين، وليس يقوم على هذا قول الجمهور أو قول الأقلين.

قصة خلق آدم وخطاب الملائكة:

قال محمد رشيد رضا في الآية الكريمة(وإذ قال ربك إني جاعل في الأرض خليفة...) في تفسير المنار(251/1 ":(وقد ذهب الأستاذ إلى أن هذه الآيات من المتشابهات التي لا يمكن حملها على ظاهرها، لأنها بحسب قانون التخاطب إما استشارة وذلك محال على الله تعالى، وإما إخبار منه سبحانه للملائكة واعتراض منهم ومحاجة وجدال وذلك لا يليق بالله تعالى أيضاً ولا بالملائكة"اهـ

فأنت ترى أن ما اختار أن ما ورد في هذه الآيات فالمراد به التمثيل، يعني أنه لم يحصل على ما يفيد ظاهر النص، وهذا اختيار مخالف لمنهج التفسير حيث إن الأصل الأخذ بالظاهر، ما لم يستحيل، ولا استحالة هنا، أما ما اعتمد عليه من أسباب، فهي ضعيفة جداً،

فقد قال: إن خطاب الله تعالى إما أن يكون على سبيل الاستشارة وذلك محال في حق الله تعالى أو إخبار فيلزم اعتراض الملائكة عليه جل شأنه وهذا لا يجوز لما أنهم لا يعصون الله ما أمرهم.

فقد أدار الاحتمالات بين اثنين، والاستشارة مرفوضة قطعاً، أما الإخبار فهو في حد ذاته لا

إشكال فيه، فلا محال يلزم من إخبار الله تعالى لبعض خلقه ببعض أفعاله، وهو لم يعترض على مجرد إخبار الله تعالى، بل قال إذا كان إخباراً فإن ما قاله الملائكة اعتراض عليه ولا يصح هذا، فنقول له: لا يلزم أن يكون ما قاله الملائكة لا يحتمل إلا معنى الاعتراض، لم لا يحمل على الاستفهام بناء على محدودية علمهم، كما ذكره العلامة أبو السعود العمادي في تفسيره (82/1 ":(وإنما أظهروا تعجبهم استكشافاً عما خفي عليهم من الحكم التي بدت على تلك المفاسد وألغتها، واستخباراً عما يزيح شبهتهم ويرشدهم إلى معرفة ما فيه عليه السلام من الفضائل التي جعلته أهلاً لذلك، كسؤال المتعلم عما ينقدح في ذهنه لا اعتراضاً على فعل الله سبحانه ولا شكاً في اشتماله على الحكمة والمصلحة إجمالاً، ولا طعناً فيه عليه السلام ولا في ذريته على وجه الغيبة، فإن منصبهم أجل من أن يظن بهم أمثال ذلك، قال تعالى(بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون).....الخ"اهـ.

أفلم يكن نحو هذا التفسير قريباً بل متبادراً إلى الذهن كفاية ليخطر في نفس أصحاب تفسير المنار؟ فيصرفهم عن دعوى أن الآية قد سيقت على سبيل التمثيل ولا سؤال ولا جواب!

وكيف ساغ لهم ذلك وقد وردت هذه القصة ونحوها في القرآن والسنة حتى شاع هذا الأسلوب مما يسهل حمله على غير الاعتراض والمشاورة اللذين اعتمد عليهما صاحب المنار في دعوى التمثيل والصرف عن الظاهر.

وأما دعوى أن الخطاب على سبيل التشاور مع الملائكة فهو لعمري بعيد غير متبادر بل هو خطاب على سبيل الإعلام لهم بما سيخلقه الله تعالى وبما سيجعله، ولم يتوقف حكم الله تعالى وإرادته على موافقة الملائكة ولا على قناعتهم أو عدم ذلك مما هو الشأن في المشاورات، فهذا احتمال بعيد يستحضر لتبعيد الظاهر ويطوى طياً، وذلك أسلوب لا يصح في التفسير.

وأما من قال أن هذه الآية يفهم منها حسن التشاور، فلا شيء في هذا، ولكن يوجد فرق بين أن يستفاد منها حسن المشورة وبين أن يقال أن الله تعالى يشاور الملائكة مشورةً.

وقد عبر محمد عبده عن رأيه في الحوار المذكور في الآية فقال(254/1 ":(وأما ذلك الحوار في الآيات فهو شأن من شؤون الله تعالى مع ملائكته صوره لنا في هذه القصة بالقول والمراجعة والسؤال والجواب، ونحن لا نعرف حقيقة ذلك القول، ولكنا نعلم أنه ليس كما يكون منا"اهـ

وفي كلامه دلالة غير خافية على أنه يقول بأن الحوار تمثيل وإلا فلا حوار ولا سؤال ولا جواب ، وأما ما قال من أنا لانعلم حقيقة ذلك القول ، إن قصد بالقول الآيات المنزلة ، فحقيقة مادل عليه ، وهي معلومة إما قطعا أو ظنا، وإن قصد القول الذي هو كلام الله تعالى ما حقيقته في نفسه وكلام الملائكة ماحقيقته في نفسه ، فلا يتوقف فهم الآية على ذلك وليس هذا مقصودا منها ، بل محل لذكر هذه العبارة هنا خصوصا.

وقال الشيخ محمد عبده في تفسير المنار(255/1":(فإذا كان الملأ الأعلى قد مُثِّلوا على أنهم يختصمون ويطلبون البيان والبرهان فيما لايعلمون ، فأجدر بالناس أن يكونوا معذورين وبالأنبياء أن يعاملوهم كما عامل الله الملائكة المقربين .."اهـ .

وهذا يعني أن الشيخ محمد عبده يزعم أن ظاهر الآية المفهوم منها أن الملائكة فعلوا هذه الأفعال من الاختصام ونحوه، ولا ريب في أن هذا خلاف الصحيح، كما بيناه عند العلماء.

والشيخ مصر على أن الآيات وردت مورد التمثيل فقد قال (1 / 255 ": (وأما الخلف فمنهم من تكلم في حقيقة الملائكة ووضع لهم تعريفا ومنهم من أمسك عن ذلك ، وقد اتفقوا على أنهم يدركون ويعلمون ، والقصة على مذهبهم وردت مورد التمثيل لتقرب من أفهام الخلق ماتفيدهم معرفته من حال النشأة الآدمية ..الخ"اهـ

ولا أدري لم يستحيل حمل الآية على ظاهرها عند الشيخ محمد عبده، وقد أبطلنا الحجج التي سند إليها في ذلك، فإن لم يبق عنده غيرها، فلا مصحح له لصرفها عند الظواهر.

ولا أدري لما يصر الشيخ محمد عبده فيما يزعم أنه من المتشابهات على أن يجري فيه مجرى السلف فيسكت عنه ولا يخوض فيه، ونراه قد تكلم وخاض هنا مع زعمه أن الآية من

المتشابهات؟!

وقال في (1 / 264 ": (وقد علم مما تقدم أن كل هذه الأقوال والمراجعات والمناظرات يفوض السلف الأمر إلى الله تعالى في معرفة حقيقتها، ويكتفون بمعرفة فائدتها وحكمتها، وقد تقدم بيان ذلك، وأما الخلف فيلجأون إلى التأويل

وأمثل طرقه في هذا المقام التمثيل، وقد مضت سنة الله في كتابه بأن يبرز لنا الأشياء المعنوية في قوالب العبارة اللفظية...الخ " اهـ

كذا قال، وقد مضى أنه لاحاجة إلى التأويل بهذه الصورة، وإن قصد بالتمثيل أن شيئاً من المحاورة والخطاب لم يكن، فهذا خلاف الظاهر ولا مسوغ له.

وفي تفسير المنار قال الشيخ محمد عبده (1 / 265) : (فسجدوا إلا إبليس) أي سجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس، وهو فرد من أفراد الملائكة كما يفهم من الآية وأمثالها في القصة إلا أيه الكهف فإنها ناطقة بأنه كان من الجن

(وإذ قال للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه)

وليس عندنا دليل على أن بين الملائكة والجن فصلا جوهريا يميز أحدهما عن الآخر، وإنما هو اختلاف أصناف عندما تختلف أوصاف، كما ترشد إليه الآيات، فالظاهر أن الجن صنفا من الملائكة ...الخ "اهـ

أول مايلفت النظر في هذا الكلام هو تناقضه مع ماسبق من قرءه أن الملائكة لايعصون الله، وهذا كان سبباً كافياً عنده لعدم الاعتراف بأنهم يحاورون وبناءً على ذلك أوجب حمل الآية على التمثيل، وههنا يقول بملء فيه إن إبليس من الجن، ولا فرق في الجنس بين الملائكة والجن، ومع ذلك فقد صرح القرآن بأن إبليس عصى الله تعالى وكذلك ذريته.

إذا كان على مذهب الشيخ محمد عبده لايجب أن يصرف آية خطاب الله تعالى للملائكة عن

ظاهرها للعلة التي ذكرها فقد نقضها هنا.

ومجرد عصيان إبليس لله تعالى كاف في إخراجه من جنس الملائكة لأنهم (لايعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون).

واحتجاجه بالاستثناء على أنه منهم، ضعيف، فالاستثناء منقطع والخطاب موجه إلى الملائكة لأنهم أغلب وهو كان فرداً معهم وإن لم يكن منهم، فالخطاب موجه للحضور جميعاً فعبر عنهم بالملائكة للغلبة الغالبة.

وكذلك قوله (1 / 265 " : (وقد أطلق في القرآن لفظ الجنة على الملائكة على رأي جمهور المفسرين في قوله تعالى (واجعلوا بينه وبين الجنة نسبا) وعلى الشياطين في آخر سورة الناس "اهـ

قول ضعيف لايكفي لجزمه بما جزم، وقد قال الإمام الرازي (2 / 233) :" وأيضا فقد بينا أن الملك يسمى جناً بحسب أصل اللغة لكن لفظ الجن بحسب الفرق اختص بغيرهم كما أن لفظ الدابة وإن كان بحسب أصل اللغة يتناول مايدب لكنه بحسب العرف اختص ببعض مايدب ،" اهـ

وكذلك قال الإمام الرازي (2 / 233) :" قلنا يحتمل أن بعض الكفار أثبتت ذلك النسب في الجن كما أثبته الملائكة " اهـ

ولا يخف أن إبليس له ذرية والملائكة لاذرية لهم، ودليل إثبات الذرية لإبليس قوله تعالى(أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني) وأما الملائكة فلا ذرية لهم لأنها إنما تحصل من الذكر والأنثى، وقد جاء إنكار كونهم إناثاً، في القرآن الكريم

(وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، أشهروا خلقهم) وإبليس مخلوق من نار والملائكة ليسوا (كذلك)

قال تعالى حكاية عن إبليس (خلقتني من نار) وهو من الجن وقد قال الله تعالى (والجان خلقناه من قبل من نار السموم) ، (خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار)

(راجع تفسير الرازي)

وأما الملائكة فهم مخلوقات من نور لامن نار كما جاء في حديث مسلم (2996)

عن عائشة قالت:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم " فهذا الحديث نص واضح عن اختلاف جنس الملائكة عن جنس الجن.

وقد قال الإمام الرازي (2 / 233):" لما ثبت أن إبليس كان من الجن وجب أن لايكون من الملائكة لقوله تعالى (ويوم نحشرهم جميعاً ثم تقول الملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن) وهذه الآية صريحة في الفرق بين الجن والملك" اهـ .

ولا يضر ماقلنا ورود القول بأن إبليس من الملائكة أو من طائفة من الملائكة تسمى الجن عن بعض السلف لأن كلامنا لامن جهة النقل بل الأدلة والبراهين كما هو منهج الشيخ محمد عبده، فلا نعارضه بمجرد النقل فيما يدعى القطع فيه بالبرهان وإلا فالقائلون بخلاف قوله هم الجمهور.

رأي الشيخ محمد عبده في الملائكة

ذكر الشيخ محمد عبده رأيه في الملائكة وحقيقتهم في المنار (1 / 254) فما بعدها، فقال بعد أن صرح بأن أناساً قد بحثوا في جوهر الملائكة ":وحاولوا معرفتهم ولكن من وقفهم الله على هذا الأمر قليلون.. والدين إنما شرع للناس كافة...

ومن خصه الله تعالى بزيادة في العلم فذلك فضله يؤتيه من يشاء... وأما ذلك الحوار في الآيات فهذا شأن من شؤون الله تعالى مع الملائكة صوره لنا في هذه القصة بالقول والمراجعة والسؤال والجواب ، ونحن لانعرف حقيقة ذلك القول، ولكننا نعلم أنه ليس كما يكون منا... والقصة على

مذهبهم _ أي الخلف وردت مورد التمثيل لنقرب من أفهام الخلق ماتفيدهم معرفته من حال النشأة الآدمية.... (ثم قال على سؤال الملائكة) وسألوا الله تعالى بلسان المقال إن كانوا ينطقون أو بلسان الحال والتوجيه إليه لإستنقاضه المعرفة بذلك وطلب البيان والحكم، وعبر الله عن ذلك بالقول..."اهـ

ثم قال محمد عبده في (1/ 267 ": (وذهب بعض المفسرين مذهبا آخر في فهم معنى الملائكة فكل أمر كلي قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الإلهية في إيجاده فإنما قوامه بروح الهي سمي في لسان الشرع ملكاً ، ومن لم يبال في التسمية بالتوفيق يسمي هذه المعاني القوى الطبيعية إذا كان لايعرف من عالم الأفكار إلا ماهو طبيعة أو قوة يظهر أثرها في الطبيعة"اهـ

فهو يرى أن في باطن الخلق أمراً هو مناطها وبه قوامها ونظامها لايمكن لعاقل أن ينكره"يسميه المؤمن ملكاً والكافر قوة طبيعية" وماذا على هذا الذي يزعم أنه لايؤمن بالغيب وقد اعترف بما غيب عنه"

" يشعر كل من فكر في نفسه ووازن بين خواطره عندما يهم بأمره فيه وجه للحق أو للخير، ووجه للباطل أو للشر، بأن في نفسه تنازعاً...فهذا الذي أودع في أنفسنا ونسميه قوة وفكراً ــ وهو في الحقيقة معنى لايدرك كنهه وروح لاتكتنه حقيقتها- لايبعد أن يسميه الله ملكاً أو يسمي أسبابه ملائكة أو ماشاء من الأسماء...الخ"

فيظهر من هذا الكلام أن الشيخ محمد عبده يقول بهذا الرأي الغريب ، أي أن القوى الطبيعية ثابتة ، أي مايسميه العلماء بالقوى المودعة ، وثانياً يقول بأن هذه القوى هي عين الملائكة.

وقد زعم محمد رشيد رضا (268/1) أن الإمام الغزالي قد سبق إلى هذا المعنى وبينه وعبر عنه بالسبب، وزعمه هذا باطل.

ثم قال الشيخ محمد عبده (269/1 :(لا يبعد أن الله تعالى بعد ماخلق هذه القوى الطبيعية" خلق الإنسان وأعطاه قوة يكون بها مستقرا للتصرف بجميع هذه القوى وتسخيرها إلى عمادة الأرض، وعبر عن تسخير هذه القوى له بالسجود الذي يفيد معنى الخضوع والتسخير"اهـ

وهذا تأويل عجيب يقرب متن التأويلات الباطنية، ثم قال ": ولو أن نفسا مالت إلى قبول هذا التأويل لم تجد في الدين ما يمنعها من ذلك، والعمدة على اطمئنان القلب وركون النفس إلى ما أبصرت من الحق"اهـ

إذن هو يجيز هذا التأويل ويصرح بأنه لايوجد في الشريعة مايمنعه، وهذا مجرد زعم منه، بل تأويله لايوجد مايقيمه و يقويه بحيث يكون سائغاً . وأما الضابط الذي زعمه من أن العمدة إنما هي في اطمئنان القلب وركون النفس وإلى ما أبصرت فسيفرح بذلك الكلام العلمانيون والمنكرون للدين كثيراً، بل قد فرحوا وفرخوا مذاهب صارت راسخة بصورة أقوى من رسوخ الأديان.

ومهما حال محمد رشيد رضا بعد ذلك تسويغ قول الشيخ محمد عبده بالقول بأنه أراد إقناع المنكرين للأديان بالملائكة بقول فريب من عقولهم، فهذا الدفاع لايجدي، بل إن الصحيح في طريقة مخاطبة المنكرين أنهم يجب أن يفهموا أن مايقوله الدين غير مخالق للعقل أصلاً، وأن مايزعمون أنه هو العقل المحض ليس كذلك أما أن نخترع لهم تفسيراً جديداً غير معهود بحجة تقريبهم، فكأننا اخترعنا لهم دينا جديداً ليؤمن به، خاصة إذا سمحنا لأنفسنا تعميم هذه الطريقة.

ثم تمادى رشيد رضا كعادته عندما قال (274/1 ": (وإنني قد جربت هذه الطريقة التي استنكروها عليه أي الطريقة التي استنكرها معارضو محمد عبده، وهي ما وضحناه سابقا في إقامة الحجة على بعض المنكرين لوجود الله تعالى، فلم يستطيعوا لها دحضا، وذلك بأن علماءهم ينكرون إله اللاهوتيين وكذا إله المتكلمين لا إله الخليقة ثم جعل مجرد اعترافهم بلزوم وجود نظام ومنظم للخلفية وانها ليست صدفة كافيا للإتفاق معهم في جوهر وأين الإسلام فقال: "إذا قلت لهم هل تعقلون أن هذا النظام الدقيق في كل نوع من المخلوقات ووحدة النظام العام في مجموعها كلها قد وجدا بالمصادفة وليس لهما مصدر وجودي؟ يقولون: لا بل لابد لذلك من مصدر لكنا لانجهل حقيقته ، حينئذٍ كنت أقول لهم : وهذا أس عقيدة الإسلام، وهو أننا نجهل كنه رب العالمين، وإنما نعرفه بأثاره في خلقه، فالفرق بينا لفظي "اهـ

فتأمل مدى جرأته عندما يقول إن خلافه مع هؤلاء المنكرين للأديان وللإله، وهم الطبيعيون الماديون، مجرد خلاف لفظي، وهذا يعني أنهم يوافقونه في أصل المعنى، وهو يوافقهم كذلك، بينما يجعل خلافهم مع المتكلمين خلافاً حقيقياً، فهو إذن يرجح عقيدة الماديين على عقيدة المتكلمين ويهجم على المتكلمين من أجل خاطر هؤلاء الماديين فتعساً لهذه الطريقة إن كانت تقرب إلا إلى الإلحاد لا إلى الأديان.

ومن تأويلاته ماقاله (282/1 ":(ويصح أن يراد بالشجرة معنى الشر والمخالفة " اهـ

والخروج من الجنة مثال لما يلاقيه الإنسان من البلاء والعناء بالخروج عن الاعتدال الفطري والشيخ محمد عبده متأثر بنظرية الأحوال الثلاث التي اخترعها بعض فلاسفة الغرب يفسرون بها مراحل انتقال الإنسان من طور إلى طور حتى وصل إلى طور العقل، وهي نظرية باطلة كما هو معلوم عند العلماء والباحثين، فعجبا من محمد عبده يميل إليها ويذكرها في تفسير كتاب الله تعالى، ويريد بالأطوار الاعتدال الفطري، ثم طور الخروج عن حد الفطرة والخضوع للخيال، ثم طور العقل والتدبر.

اعتراض على الجلال

اعترض على الجلال في تفسيره للعهد في قوله تعالى (وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم) بأنه عهد الإيمان، لاداعي لتخصيصه بالإيمان بل يدخل فيه الالتزام بمقتضى الفطرة ووزن كل شيء بميزان العقل والنظر الصحيح انظر (290/1) ، وأنا أرى اعتراضه معترضاً عليه، فمن التزم بالإيمان الصحيح اندرج فيه كل شيء ولكن المقصود بالذات هو الإيمان ولوازمه لا مايقوم عليه والله أعلم وزعم في (1/ 295) أن الإيمان الذي لا تأثير له على القلب لايعتد به فإن قصد بالتأثير ماهو زائد على الإذعان، فقوله باطل.

موقف الشيخ محمد عبده من الشفاعة

قال الشيخ محمد عبده في المنار (307/1 ": (الشفاعة المعروفة عند الناس هي أن يحمل الشافع المشفوع عنده على فعل أو ترك كان أراد غيره حكم به أم لا فلا تتحقق الشفاعة إلا بترك الإرادة وفسخها لأجل الشفيع فأما الحاكم العادل فإنه يقل الشفاعة إلا إذا تغير علمه بما كان أراده أو حكم به...أما الحاكم المستبد الظالم فإنه يقبل شفاعة المقربين عنده...وكل من النوعين محال على الله تعالى لأن إرادته تعالى على حسب علمه، وعلمه أزلي لايتغير.

(قال شيخنا) فما ورد في اثبات الشفاعة يكون على هذا من المتشابهات "اهـ

ثم أجرى قانونه الخاص بالمتشابهات، وهو يقتضي على مذهب السلف عنده أن الله عبر بهذه العبارة (الشفاعة) ولا نحيط بحقيقتها، وعلى مذهب الخلف دعاء يستجيبه الله.

والحقيقه أن مايقوله الشيخ محمد عبده لا أراه يعبر عن عمق نظر، فلا تقضي الشفاعة تغير إرادة بل هي متصورة إذا وجد حكم عام يقضي اندراج شخص فيه، وإن لم تتعلق ارادة، الحاكم بإدراجه في بالفعل ،فيأتي الشافع ويشفع عند المشفوع عنده بعدم إدخال هذا الفرد تحت مقتضى الحكم . وقد يمكن أن يري المشفوع عنده عذاب شخص لفترة ثم يقبل شفاعة الشافعين فيما وراء هذه الفترة ، وهذا كله لا يقتضي تغير الإرادة ولا حمل المشفوع عنده على تغييرها ، ولا يقتضي خلاف العلم الأزلي. .

وهذا هو المعني بالشفاعة عند أهل السنة .

أما ما قاله على مذهب السلف فهو غير مسلم وقد أشرنا إلى ذلك في مواضع متعددة ،فمذهب السلف لا يقول إننا نعتقد أن الله تعالى أطلق اللفظ ونحن لا نعلم المراد به مطلقاً، أو انه أطلق الوضع اللغوي والاستعمال الجائز، ولكن قد يسكتون على ما وراء المعنى الإجمالي من البحث عن تفاصيله أو حقيقة ما يصدق عليه وهذا نحو من النظر يخالف ما يقرره الشيخ محمد عبده عن مذهب السلف ولذلك قال علماؤنا إن طريقة السلف لا بد فيه من تأويل إجمالي كما أن

التأويل التفصيلي لازم على طريقة الخلف.

وعلى هذا فالشفاعة لا تكون من المتشابهات والله تعالى أعلم.

رأي محمد عبده في البعث بعد الصاعقة

قال تعالى (وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ،فأخذتكم الصاعقة وانتم تنظرون (55)ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون (56).

قال الشيخ محمد عبده في تفسير هذه الآية (322/1)(المراد بالبعث هو كثرة النسل ،أي أنه بعد ما وقع فيهم الموت بالصاعقة وغيرها وظن أنهم سينقرضون بارك الله في نسلهم ....الخ "اهـ

وهذا التأويل غريب بعيد عن السياق وخلاف الظاهر فإن الظاهر هو أنهم بعثوا بعد موتهم،أي إنهم ماتوا موتاً حقيقياً بالصاعقة، لتعنتهم بطلب الرؤية جهرة، ثم أعاد الله إحيائهم ليكون موعظة لهم. وإنما أصيب بالصاعقة من كان مع موسى عليه السلام، ولم يكونوا جميع بني إسرائيل حتى يخاف انقطاع النسل ليكون مسوغاً لا لحمل البعث الوارد في الآية على المجاز كما زعم محمد عبده !!

مسألة أهل الفترة

قال الشيخ محمد عبده (338/1 ":(وذهب جمهور الحنفية وكذلك المعتزلة إلى أن أصول الاعتقاد تدرك بالعقل ، فلا تتوقف المؤاخذة عليها على بلوغ دعوة رسول "اهـ

وهذا الكلام غير دقيق، فإنما قال الماتريدية ذلك في الإيمان بالله تعالى، وليس في جميع أصول الاعتقاد. فضلاً عن أنه يوجد فرق بين مبنى المعتزلة ومبنى الماتريدية في هذا القول ،فالمعتزلة بنوه على الحسن والقبح الذاتيين، والماتريدية بنوه على وضوح الدلائل وقيامها مقام الرسالة في ذلك أي في الكشف عن حكم الله الثابت بقوله.

قال(339/1 ":(ولا يعقل أن يكون مَن لم تبلغهم الدعوة بشرطها أو مطلقاً ناجين على سواء وأن

يكونوا كلهم في الجنة كأتباع الرسل في الإيمان الصحيح والعمل والصالح، إذ لو صح ذلك لكان بعث الرسل شراً من عدمه بالنسبة إلى أكثر الناس"اهـ.

أما قوله أنه غير معقول، فإن قصد أنه محال، فقوله مجرد دعوى لا دليل عليها، كيف يكون محالاً وقد ثبت أن الله الفاعل المختار لا تحجير عليه في أفعاله، فإن شاء أن يدخلهم الجنة، فلا رادَّ لحكمه ولا معقب لقضائه.

وأما استلزام كون بعث الرسل شراً، فإن هذا الكلام مجرد مغالطة مكشوفة، فإن إرسال الرسل يتبعه أن يؤمن البعض ويكفر البعض، بغض النظر من الأكثر، أهم المؤمنون أم الكافرون، وهذا بغض النظر عن حكم أهل الفترة، يعني سواء وجدوا أم لا، وسواء أدخلهم الله تعالى أم لا. فمن اتبع الرسل نجا ومن أبى عوقب، فلو كان ترتب العقاب شراً لكان شراً مطلقاً بغض النظر عن حكم أهل الفترة، والقائل بذلك يقدح في أصل عظيم من أصول الدين وهو إرسال الرسل.

والشيخ محمد عبده كما هو واضح يبني على أن الحسن والقبح ذاتيان، وهذا مبدأ باطل من مبادئ الاعتزال.

ثم قال (1/ 339 ":(والمعقول الموافق للنصوص أن الله تعالى يحاسب هؤلاء اللذين لم تبلغهم دعوة ما بحسب ما عقلوا واعتقدوا من الحق والخير ومقابلهما"اهـ.

هذا ظاهر أنه يبنيه على الحسن والقبح العقليين خلافاً لأهل السنة، وهو ظاهر في أنه يعمم ذلك في كل شؤون الحياة لا في أصول الدين الاعتقادية فقط.وهو غلوٌّ.

** هذا المقال من منتدى الأصلين .